

٤ - فريزر ودراسة الخرافة

اهتمام الحياة الانسانية

للدكتور ابراهيم بيومي مذكور

للدروس بالجامعة المصرية

أسلفنا القول في بيان أثر الخرافة في تثبيت دعائم الحكومة والملكية الشخصية والزواج . وهانحن أولاء نشرح ما غرسته في النفوس من تقديس للانسان واحترام لحياته ، وبنا نكون قد أعمنا سلسة النظم الاجتماعية التي شاء فريزر أن يبين مقدار تدخل الخرافة في نشأتها وتكوينها

بديهي أن معيشة البداية المبينة على حب الانتقام ، والأخذ بالثأر ، وحماية الجار ، والقطع المستमित عن المال والعرض ، والمملوءة بالأضغان والأحقاد أدعى لاراقة الدماء واعتداء المرء على أخيه . فالإنسان الأول الذي عاش هذه المعيشة المضطربة ما كان يتم بضمانات كافية لحفظ روحه . فلم يكن له عسس منظم يسهر على حراسته ، ولا قانون واضح يهدد بالعقوبة كل من اعتدى عليه ، ولا عاكم محترمة تشهر بالجناة وسفاكي الدماء . ولا زلنا نشاهد الى اليوم أن القتل وازهاق الأرواح البريئة ينتشر حيث تسود الفوضى والاضطراب وفي الأوساط البدوية والقبائل الهمجية بوجه خاص . بيد أن الجمعية تعالج نفسها بنفسها وتمد لكل داء ما يناسبه من دواء . ولئن قات الانسان المتوحش شرطتنا المنظمة ، وجندنا الشاكي السلاح فانه لم تفته وسائل أخرى من وسائل الدفاع عن نفسه وحقق دمه . ومن بين هذه الوسائل خرافة الأشباح وأرواح الموتى التي تتمثل في صورة شياطين ومردة تنتقم ممن اعتدى عليها

قد لا تكون هناك خرافة سادت العالم سيادة هذه الخرافة . ظهرت مع الانسان منذ نشأته ، ولازمته في مراحل التاريخ المختلفة : يبدو في المصور القديمة والقرون الوسطى والأزمنة الحديثة ، بين البدو والهمج ولدى الأمم التمدنية . ويكفي أن نشير الى أن كثيرين منا لا يجرؤون على السير ليلا - بل نهاراً - بجوار دار قتل فيها قتيل زعماً منهم بأن روحه النائرة ستفتك

بهم . وعمل عادة تغيير المسكن السائدة بيننا على أثر حريق أو وفاة مما ترجع الى هذه الخرافة ، كما هو الشأن لدى بعض القبائل الهمجية . ويقص علينا عاتنا وسكان قرالط-أغرب القصص عن المردة الذين لاقوم في طريقهم ودار بينهم ما دار من حوار وتقاش ؛ والماهر منهم من استطاع أن ينجو من المارد الذي اعترضه بجواب لبق أو حيلة ماكرة ؛ وحديث « القرينة » والغفاريات ملأ قرانا ومدننا ، وأصبح أشهر من أن يعرف عنه ، وله طب خاص وقوامون على أمره يتمهدونه بالبخور « والدقة » وما الى ذلك من علاج كله ضلال وبطلان

ليس بعسير على الباحث أن يثبت أن خرافة الأشباح هذه جنت على الانسانية جنائيات شغواء ، فبلى بعض الأشخاص بالخوف حتى من ظلمهم ، وقننت على آخرين بالجنون والصرع وكثير من المصائب والآفات . وقدمت بكثيرين عن السى وراء أرزاقهم خشية أن يمدو عليهم شبح من الأشباح أو روح من الأرواح . وفي بعض القبائل المتوحشة لا يستطيع شخص أن يتنفع بمال أبيه وأهله وذويه بمد موتهم ، لأن أرواحهم تنتقم منه أشد الانتقام غيرة على هذا الحرم المباح والمال الممتدى عليه ، فكل يعيش ليومه ، ولا يعمل شيئاً لئله ؛ وعلى هذا كانت فكرة المستقبل التي هي أساس التقدم الصناعي والتجاري والاقتصادي ضائعة لدى هذه القبائل ؛ وفي ضياع هذه الفكرة ما يفتاق وتكون الثروة والنجاح ، وكيف تكون الثروة عند قوم كل مهمم من الدنيا عشرات السنين يعيشونها ؛ فإذا ماتوا انقرضت أمتهم معهم ويددت أموالهم ؟ يقول أحد كبار الرحالة : « إنه ليس لدى البتاجون (من سكان أمريكا الجنوبية) أي قانون ولا أية عقوبة ضد المجرمين . كل يعيش على حسب هواه ، والسارق الماهر هو الجدير بالتقدير . وليس هناك ما يمنعهم من السرقة واقامة الأبنية الثابتة إلا العقيدة السائدة من أنه إذا مات أحدم وجب أن تبدد أملاكه . فكل بتاجوني حصل على ثروة طوال حياته بالسرقة أو الصيد أو التعامل مع القبائل المجاورة لا يفيد وراثته في شيء ، ذلك لان كل ما ادخره يبلى معه ، وعلى أبنائه أن يكونوا ثروتهم بمجهودهم الخاص وقوم هذه معتقداتهم وتقاليدهم يقنعون بحاجتهم الماجلة ولا يتعلقون برقية

اللازم لتكفير خطيئته وإرضاء الروح التي جنى عليها^(١) والصينيون كانوا ولا يزالون يؤمنون ببقاء الأرواح وقدرتها على مكافأة المحسنين والانتقام من المسيئين ؛ فهي تتدخل من غير انقطاع في عالم الأحياء وتتصرف فيه تمام التصرف . نعم إن هناك فرقا بين الأشخاص والأرواح ، بين الأحياء والأموات ، بيد أن هذا الفرق طفيف والمسافة بين هذه الأطراف قصيرة للغاية . وما الديانة الصينية إلا مجموعة أفكار تدور حول الأرواح

- وما يتصل بها . وقوم يدعون للأرواح هذا الأذعان لا يجرؤون على الاعتداء عليها ويقدمون الحياة الانسانية تمام التقديس^(٢) ويعتقد سكان أترقية الوسطى أن القاتل إذا قام قومًا في طعامهم أو بات في كوخهم أحل بهم غضب الله وربما كان سببًا في هلاكهم ، اللهم إلا إن تداركهم القس والكهنة بأدعيتهم وتضرعاتهم ، ويرغم بعض القبائل الهندية أن الرجل إذا قتل عدوه لا يسلم من شر روحه إلا أن أراق دم خنزير أو جدى صغير ، ومع أن البانتو يمدون الفوز في المارك الحربية مفخرة عظيمة وشرقا لا يعدله شرف فأنهم يخشون أرواح القتلى خشية تضل بهم أحيانا إلى الجنون والصرع . وللدوء هذا الخطر يبقى المحارب الظافر في العاصمة بضعة أيام لا يمسأ خرقا بالية آكلًا في أو ان وبإعاق خاصة ، وحرام عليه أن يشرب الماء وأن يقرب النساء وأن يتناول أى طعام دافئ . وإذا قتل أحد سكان الكنتو قتيلا حمل على رأسه بعض أرياش البيغاء وغطى جبهته بلون أحمر ، وكأنا يريد بذلك أن يستتر عن أعين الروح التي تطارده . وفي غانة الجديدة تسارع القبيلة المحاربة بمد إنجازها هجومًا أو معركة ما بالعودة إلى مسكنها أو إلى قرية محالفة قبل أن يدخل الليل الذي تهيج فيه الأرواح وتتشبث بالقتلة والمحاربين . وفي مقدور الروح أن تتعرف من اعتدى عليها بما لصق بجسمه من دم القتل أو أى أثر من آثاره . لذلك يطهر المحارب جسمه وحرثته بمد أن يتم مهمته ، وإذا وصل إلى قريته حبل بينه وبين أهله وذويه وبقى منمزلًا فترة من الزمن ، وفي اليوم الثالث من وصوله يحتفل به

(١) Platon, Lois IX, 8. — Aristote, Constitutions d' Athènes, 57.

(٢) Groot, The religious system of chiuna, IV, 450. 464

حقيقية ، ولا يصوبون نحو غاية بعيدة ؛ وهذا سر كلهم وتواكلهم ورضاهم بالقليل الذى يتناق مع التقدم والحضارة ، وعلام التعلق بالمستقبل الذى لا يرجى منه خير أو شر ؟ الحاضر هو كل شيء فى أعينهم ، والمنفعة الذاتية مبدؤهم ؛ فالابن لا يهتمد قطيع أبيه لعله أنه لا يعود عليه بطائل ، وإنما يكذب ويكذب وحده ليحصل على روة شخصية^(١) « نغرافة الأشباح والنفاريت والردة سبب من أسباب الضعف السياسى والاقتصادى لدى بعض الشعوب الناشئة والجاهلة

غير أن هذه الخرافة ليست شرًا كلها ، بل كانت عاملا من عوامل الخير والدفاع عن الانسان فى الجميات التى سادت فيها ، فالخوف من الأشباح وعدوانها والأرواح وانتقامها ساعد على حقن دماء كثيرة واحترام الحياة الانسانية . وذلك أن طائفة من الشعوب تعتقد أن أرواح الموتى والقتلى ذات نفوذ عظيم وقوة هائلة تستطيع بها أن تمكر على الأحياء صقوم وتمترضهم فى طريقهم وتتقمص أجسامهم . وأرواح القتلى بوجه خاص مقطورة على الثأر من اعتدى عليها فى شخصه أو فى أهله وعشيرته . لهذا يضطر الأفراد والجماعات لترضيها بالهدايا والقرابين ، فيذبجون المزم والضان والديكة والخنازير التى يفسل القاتل بدنها أفتار خطيئته . وأحيانا يجارون هذه الأرواح ويطاردونها بمختلف الوسائل ويهجرون القرى والمساكن من جرائها . وكمن قرية كانت أهله بالسكان صباحا ، ثم قتل فيها قتيلا ظهر فأتمحت فى المساء خرابا يابا ، وقد يمثل بالقتول أشنع تمثيل لتبقى روحه كائنة فى جسمه وطاجزة عن الثأر له

فالأعريق الأول كانوا يمتقدون أن روح القتل تتأجج غيظًا ممن اعتدى عليها وتتأبمه فى حقله ومسكنه ولا ينجيه منها إلا فراره خارج الديار عامًا كاملا يرجى فيه أن تهدأ هذه الروح من تورتها . وإذا عاد إلى وطنه سارع إلى تقديم الضحايا والقرابين تكفيرًا عن أعمه . وقاتل هذا شأنه بمد شرًا يبق وخطرا تخشاه الجمعية لا يحيط به من أرواح نائرة قد تؤذى كل من حام حوله ، فكان طبيعيا أن تحم القبيلة على القاتل بمفارقة البلاد الزمن

(١) Alcide d'Orbigny, Voyage dans l'Amérique méridionale, II, P. 99 sq

الأرز اللازم لطعامكم^(١) » وقد لا تقف الجمعية عند القرابين والهدايا للتكفير عن خطيئة القتل وتهدة الأرواح المضطربة ، بل تعمل على مطاردة هذه الأرواح بطرق أخيرة . فهنود أمريكا الشمالية إذا عادوا من معركة ساحوا صيحات عالية وأحدنوا جلية وضوضاء يراد بها منع الأرواح من أن تدخل قراهم ، ومن الغريب أن أنجد نفس هذه التقاليد لدى سكان غابة الجديدة الهولندية والألمانية ، وفي استراليا . ويقطع جماعة الأسكيمو المقيمون في مضيق بيرنج عضلات ذراع وجنب القنيل ليخول ذلك دون سيره إن عادت روحه إلى جسمه طلباً للنار . وفي أفريقية الجنوبية يُهشم العمود الفقري تهشياً منمناً للقنيل من الحركة . وعلاً طائفة أخرى عين القنيل بالفلفل كي تضل روحه السبيل

تخرافة الأرواح والأشباح ملأت الناس أفراداً وجماعات ذعراً وهولاً ، ودفنهم إلى احترام الحياة الانسانية وتقديسها . وما القوانين الجنائية المنظمة ؛ والمحاكم القائمة بين الناس بالعدل والانصاف إلا أثر صالح من آثار هذه الخرافة . خشي الفرد القاتل الأرواح وعدوانها فلم يسرف في القتل حباً لذاته وتعلقاً بشخصه ، ورأت الجماعة في هذه الأرواح خطراً يهدد كيانها فأزلت بالقتلة صارم العقاب ، وسنت ما سنت من حدود تروع الجناة وسفاكي الدماء ، وبذا أضحت الحياة الانسانية محفوظة بماملين : داخلي وخارجي ، فردي وجمعي ، ومحمية بسلاح الاخلاق والقانون

يُجهد الفقهاء والشراحون أنفسهم اليوم في مناقشة النظرية القائلة بأن الحدود جوارب أو زواجر . ويختلف علماء القانون الجنائي في أثر العقوبة : فطائفة تقول إن الغرض منها إصلاح المجرم ، وأخرى ترى فيها القصاص الملاثم للمجنى عليه ، وثالثة تمدها ترضية لازمة لعاطفة الجمهور الثائرة والمتدى عليها . وما هذه الآراء المتباينة والنظريات المختلفة إلا منطق مهذب تدخله في تقاليد القبائل الهمجية وتعليل منمق نصبغ به خرافات الشعوب الأولى . وهكذا تحير الانسانية من الخيال إلى الحقيقة ، ومن بحر الخرافة السميح إلى سخور العقل الثابتة ، ومن الخارق للمادة إلى الطبيعي ، ومن السلم به إلى المنطق

إبراهيم يرمى مذكور
دكتور في الآداب والفلسفة

(١) Bringand, Les Karins de la Birmanie p. 208

أصدقاؤه احتفالاً مناسباً ، وفي اليوم الرابع يلبس أجل ثيابه وعدة حربه ويخرج شاكي السلاح محترقاً شوارع القرية ؛ وعده يرى بهنا إلى استرداد قوته وشجاعته . وإذا شك أحد أبناء القرية ألماً في معدته ظن أن ذلك راجع إلى أنه جلس في مكان شغله محارب من قبل ؛ وإذا أصيب بأذى في أسنانه عزها هذا إلى أنه أكل فاكهة لسها محارب^(٢)

وأرواح الآباء والأقارب القتل بوجه خاص شديدة الهول وعظيمة الخطر ، لأنها تجد وسائل كثيرة للنار لنفسها وأعرف بدخائل القاتل من الأرواح الأخرى . وقد يكون في هذا ما يفسر قسوة الجمهور إلى اليوم على قاتل أبيه أو أمه أو أخيه . والقوانين الجنائية نفسها مشربة بهذا المعنى في مختلف الأمم والشرائع ، ولأبناء القرية الواحدة من الجلال والحرمة ما للأهل والأقارب ، فلئن استغاب هجى إزهاق روح أجنبية لا يستطيع أن يخفى ذعره من اعتدائه على روح جاره ومواطنه . فسكان الكنفو مثلاً لا يرون غضاضة عليهم في المدوان على القرى المجاورة في حين أن هدوانهم على أبناء قبيلتهم وقريتهم يملؤهم خوفاً ورعباً ، ولا يتردد القاتل في أن يلبس السواد على من قتله ويحزن عليه حزناً شديداً كأنه أحد أقاربه أو أصدقاؤه ولا يشرب ولا يأكل ويكي بكاء مراراً^(٣)

وليس خطر الأرواح والأشباح بمفصور على الأفراد وحدهم بل يتعداهم إلى الجمعية بأسرها ، لأن الأرواح الثائرة ربما تعدو على من صادفها دون أن تميز الجاني من غيره . لذلك تضطر الجمعية إلى تهدة ثورة هذه الأرواح بشتى الوسائل أو إلى محاربتها والقرار منها . ومن الأمثلة على ذلك أن أهل برمانيا يزعمون أن أرواح القتلى لا تصمد إلى عالم السعادة ولا تنزل إلى عالم الشقاء ، وإنما تبقى دائماً حائرة في الأرض تفرع من تلقى ، ولترضية هذه الأرواح تقسم لها في الثابتات المجاورة قرابين من الأرز مصحوبة بالأدعية الآتية : « أرواح من سقطوا من شجرة ، أو من ماتوا جوعاً وعطشاً ، أو من أكلهم النمر والثعبان ، أو من عدا عليهم الانسان ، أو من أهلكهم الطاعون والجرب ، لا تسيثوا معانلتنا ، ولا تؤذونا ولا تتوروا علينا ، امسكوا هنا في هذه الثابتة حيث

(١) Guise, On the tribes inhabiting... New Guinea, Journal of the anthropological institute, XX VIII, p. 213 sq

(٢) Weeks, Among Congo cannibals, p. 208